التحزب والتعصب المذهبي

الدكتور حمزة أبو فارس

نشر في كتاب

ظاهرة التطرف والعنف..

من مواجهة الآثار إلى دراسة الأسباب

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى محرم 1428هـ موافق يناير 2007م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان 1439 / مايو 2018

الدكتور حمزة أبوفارس (*)

إن من الطرق التي يُقضى بها على التعصب، بجميع أشكاله، أن نجعل مناهجنا وأحاديثنا في الإذاعات، المسموعة والمرئية والمكتوبة... إلخ، نجعلها تربي المسلم على اتباع الحق أين وجده، والتحرر من التقليد الأعمى؛ كما أن من أهم متطلبات الدين عدم إكراه (الآخر) المخالف والاعتراف بحقه في الاختيار.

- البعد الفقهي للعنف والفقه المطلوب:

لما كان موضوع المحور الرابع «**البعد الفقهي للعنف (الفقه المطلوب)**»، الذي اخترته من بين محاور الكتاب، واسعاً، فقد اخترت منه الكتابة في «التعصب المذهبي والتحزب الطائفي والعنصري»، وأثر ذلك في إذكاء العنف، واخترت حلولاً عملية لإبعاد هذا التعصب والتخلص منه أو تخفيفه إلى حد كبير، ولا أخفي صعوبة الكتابة في هذا الموضوع، فأطرافه متناثرة وفي الوقت نفسه متشابكة.

وقبل أن أبدأ الكتابة أنبه إلى أني لا أكتب لإرضاء أحد ولا لإغضابه، ولكن بتوجيه من إحساسي بمسؤوليتي عن تبيين ما أراه في هذه المسألة، فأقول والله المستعان وعليه التكلان .

- التعصب المذهبي والطائفي والعنصري:

إن للتعصب بكل أنواعه دوراً كبيراً في إيجاد ظاهرة العنف والتطرف، قال ﷺ:

(*) باحث.. جامعة الفاتح.. طرابلس.. (ليبيا).

«**حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ**»[1]، ولذلك عمل الإسلام على علاج هذه الظاهرة، وأمر المسلم بالوقوف مع الحق أينما كان، حتى يسود المجتمع المسلم الوئام والعدل والإحسان .

قد تطلب المنهج أن تكون هذه الورقة في مقدمة وأربعة مباحث.

المقدمة: وفيها تعريف للتعصب.

المبحث الأول في التعصب العنصري وآثاره وموقف الإسلام منه.

المبحث الثاني في التعصب الطائفي وآثاره وموقف الإسلام منه.

المبحث الثالث في التعصب المذهبي وآثاره وموقف الإسلام منه.

المبحث الرابع في طرح أفكار لعلاج هذا التعصب.

(1) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب.

المقدمة

- تعريف التعصب:

التعصب لغة:

قال ابن فارس: العين والصاد والباء أصل صحيح واحد يدل على ربط شيء بشيء مستطيلاً أو مستديراً [1].

وفي اللسان: انعصب: اشتد، وعصبه: طواه، والعصابة: العمامة، وكل ما يعصب به الرأس. والعصبة والعصابة: جماعة ما بين العشرين إلى الأربعين.

وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا، فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل: تعصبوا، والعصبي من يعين قومه على الظلم .

والعصبة: الأقارب من جهة الأب؛ لأنهم يعصبونه أي يحيطون به.. والتعصب: المحاماة والمدافعة، وتعصبنا له ومعه: نصرناه[2].

التعصب اصطلاحاً:

لا يتعدى معناه اللغوي، فهو يدور حول الشدة والمحاماة والنصرة، أو هو الانحياز إلى من يحبه أو يؤمن بمبادئه أو بني جنسه، كان على خطأ أو صواب، ونبذ المخالف بقوة وعنف، وتخطئته وعدم اتباعه، ولو كان على صواب واضح. فربما انحصر هذا الميل على المؤالف ونبذ المخالف بالأقوال، وربما امتد إلى أقصاه فتحول إلى طرد المخالف أو قتله آخر الأمر.

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 4 / 336 (عصب).
(2) ابن منظور، لسان العرب، 4 / 2964 – 2966 مادة: عصب.

المبحث الأول

التعصب العنصري وآثاره وموقف الإسلام منه

ترتكز علاقـــات الناس بعضهم ببعض على وحدة الأرض التي يعيشــون عليها، أو وحدة لغة يتفاهمون بها، أو مصالح يجتمعون عليها، أو عنصر وجنس ينحدرون منه. وتشكل هذه الرابطة في الغالب مصدر اتفاق وتناصر بين هؤلاء، ولو أدى ذلك إلى ظلم «الغير»، فالظلم على رأي هؤلاء ليس الذي يقع ممن تشترك معه في إحدى المقومات السابقة، وإنما يسمى ظلماً إذا وقع من غيرهم.

والذي يهمنا في هذا المبحث التعصب الذي ينشأ عن الرابطة الجنسية أو العنصرية، أو بتعبير آخر (التعصب العنصري).

عرفت كثير من الشعوب قبل الإسلام وبعده هذا النوع من التعصب الذي ينحاز فيه الإنسان انحيازاً كاملاً إلى عنصره، مظلوماً أو ظالماً، وقد عرفه العرب في جاهليتهم.. وهذا التعصب قد يتسع حتى يجعل الإنسان ينتصر لقبيلته جميعها من قبيلة أخرى، أو قل من عنصر آخر – ولو كان يجتمع معه نسباً على بعد – ويضيق أحياناً حتى لا يعرف الإنسان فيه إلا نفسه وأسرته.

ولعل أحسن قانون يمثل هذا النوع الأخير جواب أعرابي في الجاهلية عندما سئل: ما هو العدل في نظرك ؟ فأجاب: العدل أن أغير على جاري فأسلب منه ماله.. فقيل له: وما الظلم في نظرك ؟ فقال: الظلم أن يغير عليَّ جاري فيسترد مني ماله[1].

(1) نصر فريد واصل، «التفجيرات والتهديدات التي تواجه الآمنين»، بحث قدم للدورة (17) للمجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي، المنعقد في مكة المكرمة، 1424 هـ/ 2003 م، ص 20.

هذا هو القانون وهذا هو المعيار الذي يوزن به العدل والظلم في جاهلية العرب، وهو نفسه الذي توزن به هاتان القيمتان في جاهلية اليوم، ولا أحسبني بحاجة إلى التدليل على ذلك.

هذا التعصب العنصري كان سائداً عند العرب، حتى إنه يضطرهم إلى التحالف أفراداً وجماعات، وترتب عليه أن ساد الظلم في المجتمع حتى إن شاعرهم يسجل ذلك تعبيراً عن الروح السائدة في المجتمع الذي يعيش فيه إذ يقول:

جريء متى يظلم يعاقب بظلمه سريعاً وإلا يبد بالظلم يظلم[1]

ولا نشك أن وحدة اللغة رباط مهم بين الشعوب، وكذلك وحدة المولد والمنشأ والجنس، ووحدة المصالح المشتركة، ولعل أقواها عند التجربة العنصر والجنس، ومع ذلك نجد هذه العوامل زائفة[2]، لا تصمد عند الامتحان؛ لأن المصالح تتغلب على البقية، والمصالح تتضارب وتتعارض، فعند نقطة ما تجد التفكير في المصلحة الشخصية أو الأسرية أو على الأكثر القبلية أو ما يشابهها عند الذين اندثرت أو كادت تندثر أنسابهم. لهذا نجد الشعوب التي بنت سلوكها وتعاملها مع الآخرين على هذا الأســـــاس، أعني النظر إلى العنصر والجنس، تنظر إلى غيرها نظرة احتقار وامتهان؛ لأنها تشاهدهم من علو ملاحظة الفرق بينها وبين الآخرين، فهم السادة والآخرون العبيد، وهم الأغنياء يتصـــــرفون في كنوز الأرض، والآخـــرون فقراء وخدم، وهم – وحدهم – لهم الحق في حياة رغدة ناعمة، والآخرون لا يستحقون ذلك.

قلت: هذا التعصب كان سائداً عند العرب كما كان سائداً عند أمم أخرى

(1) القائل زهير بن أبي سلمى في معلقته، تنظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، ص 109.
(2) عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، ص 137.

كانت موجـودة في ذلك الوقت، وهو موجود في عالمنا اليوم، ولو أنه يغطى بأغطية – في أغلب الأحيان – لا تحجبه كثيراً .

ومن الأمثلة الواقعية اليوم على التعصب للدم والجنس والعنصر ما نراه عند اليهود الذي احتلوا فلسطين وطردوا أهلها، فهم يدعون أنهم شعب الله المختار، وأن غيرهم (الجويم) أي الأمميون الذين لا يجب أن تكون لهم كرامة، وإنما يعاملون معاملة البهائم .

أما أثر هذا الاعتقاد وهذه النظرة فواضح للعيان، فتقتيل الفلسطينيين وطردهم من أرضهم حق لليهود؛ لأن الفلسطينيين يمثلون خطراً على اليهود، وبما أنهم من (الجويم) فهم لا حق لهم في أرض ولا في مال ولا استقلال، وتقتيل رجالهم ونسائهم وأطفالهم مباح لا حرج فيه.

أما قتل يهودي من قبل الفلسطيني – ولو دخل عليه الأول داره بالسلاح – فهو عين الظلم .

موقف الإسلام من التعصب العنصري:

لما بعث الله خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ كان العرب –كما وصفنا سابقاً– يتصفون بالعنصرية، فكل قبيلة تعتقد أنها أفضل من غيرها، بل أحياناً كل بطن منها يعتقد أنه أعلى وأسمى من غيره من البطون، وعلى ذلك ساروا في حياتهم، وفي حربهم وسلمهم وثاراتهم .

جاء الإسلام فألغى هذه النعرات، وأوقف هذه النظرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات:13) .

فلا يصح – حسب الإسلام – أن يكون ما يظهر من اختلاف الشعوب والقبائل

والأجناس سبباً للتباغض والتناحر، وإنما يجب أن يكون وسيلة للتعارف والتعاون.

أما الأرض فهي لله، يعمرها الإنسان بالخير، يورثها الله من يشاء، فلا يجوز أن تتخذ معبوداً، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الحج:66).

ولا يصح في الإسلام التفاخر بالنسب، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة:24) .

قال رسول الله ﷺ: « **يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ** – أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا– **اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا؛ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا؛ يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا؛ وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا؛ وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**» [1].

وقال ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ**»[2]، وقد وصف ﷺ العصبية الجاهلية منفراً منها بقوله: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»[3]. وفي صحيح البخاري: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**»[4] وذلك في الواقعة التي وقعت في غزوة المريسيع بين مهاجري وأنصاري، فأدت إلى أن نادى كل رجل قومه للنصرة.

وإذا أدخلنا في التعصب العنصري التمييز بين الألوان البشرية، وبين الذكور

(1) أخرجه البخاري،كتاب الوصايا.
(2) أخرجه أبو داود.
(3) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن.
(4) أخرجه البخاري، كتاب المناقب.

والإناث فإننا نجد هذا التمييز يتبع ما تحدثنا عنه آنفاً من التمييز المبني على الجنس، وقد كان هذا النوع من التعصب موجوداً في العرب قبل الإسلام، وعند غيرهم كذلك، ، بل لا يزال موجوداً إلى يومنا هذا في كثير من البلدان، فما زالت بعض المطاعم في بعض الدول حكراً على لون معين، ممنوع منها الألوان الأخرى.

أما في الإسلام فلا وجود لهذا التمييز والتعصب اللوني؛ إذ لا قيمة لهذه الفروق في نظرة الإسلام، ولم يكن هذا الموقف الذي يسوى فيه جميع الألوان مجرد نظر، بل إن ذلك طبق عملياً في الحضارة الإسلامية، فموضع بلال بين الصحابة معروف في السيرة النبوية.

ففي المسجد يلتقي الأبيض والأسود، وفي الحج تلتقي الألوان على صعيد واحد دون شعور بالاستعلاء أو الفروق، وهذا أسامة بن زيد بن حارثة، ﷺ، يجعله الرسول ﷺ قائداً للجيش – وهو أسود – غير أن الجيش لا يخرج، إذ قد حدثت وفاة رسول الله ﷺ أثناء ذلك، فأنفذه أبو بكر، ﷺ.

وهذا وفد عمرو بن العاص، ﷺ، إلى المقوقس ليفاوضه برئاسة عبادة بن الصامت، ﷺ، – وكان أسوداً – فلما وصلوا إلى المقوقس تقدمهم عبادة، فهابه المقوقس لسواده، فقال لهم: نحوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني، فقال جميع رجال الوفد: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو خيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعاً إلى رأيه، وقد أمَّره الأمير دوننا، ولما أنكر المقوقس ذلك، شرحوا له أن السواد غير منكر فيهم[1].

وما نراه اليوم من استعمال للمرأة في شتى المجالات المهينة تحت شعار الحرية

(1) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ص 64 – 65 .

ما هو إلا ضرب من ضروب هذا التعصب وإن زينوه لها بمصطلحات فارغة مدروسة عميت على كثير من النساء، وفطن لها بعضهن. كل ذلك تناوله الإسلام كتاباً وسنة، فلم يجعل للون ولا للجنس فضلاً، بل الفضل كله يرجع للتقوى واتباع أوامر الخالق، الذي لم يلد ولم يولد ولم تكن له صاحبة ولا قريب.

ولا بد أن نبين ما قد يخطر بالبال من الفروق بين الذكور والإناث في بعض المجالات في الإسلام فنقول: إن هذه الفروق تتبع الفروق في الخلقة الجسمية فليس هذا من قبل التمييز التعصبي، فلا يمكن أن يكلف الرجل بالإنجاب والإرضاع مثلاً، ولا أن تكلف المرأة بالوظائف التي خلق لها الرجل .

إثارة هذا التعصب لدى المسلمين:

يعمل أعداء الإسلام على إثارة النعرات العنصرية من قومية ووطنية وغيرها في المسلمين حتى يبعدوهم عن دينهم، وقد وضعوا لذلك استرتيجيات مدروسة كانت نتيجتها تشتت المسلمين في دويلات يتحكم فيها أعداء الإسلام، وأشربوهم هذا التعصب حتى أصبح المسلم الذي يذبح أخوه على مقربة منه لا تتحرك له شعرة، بعد أن كان متصفاً بما وصفه به رسول الله ﷺ: « **الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»[1].. «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ**... »[2]

(1) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان.

(2) أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغصب.

المبحث الثاني
التعصب الطائفي آثاره وموقف الإسلام منه

الطائفة: الجماعة من الناس يجمع بينها فكر معين أو مبادئ معينة.

والتعصب للطائفة المقصود منه الانحياز الكامل والانتصار لجماعة من الناس فكراً وعملاً مع تخطئة غيرهم ووصفهم بالأوصاف المقيتة. وهذا يظهر في كثير من التكتلات والتحزبات قديماً وحديثاً.

وقد علمنا القرآن الكريم الأدب في محاورة المخالف حتى ولو كان غير مشكوك في باطله، وهو أرقى أنواع التنزل التي سماها علماء البيان مشاكلة، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ (سبأ:24-25).

قلت: إذا كان هذا الحال مع الكافر المخالف في الدين، فما بالك بمحاورة المسلم، ولو كان في نظرك مخطئاً.

أسباب التعصب:

يمكن تلخيص الأسباب التي ترسخ هذا النوع من التعصب في النقاط التالية:

1- التعصب لشيخ معين وجعله معياراً للحق:

إن الأصل أن يقاس الرجل بالحق، فإذا انقلب الأمر وانعكس، وأصبح الحق يعرف بالرجال، نتج عن ذلك تعصب، وكلما تكرر ذلك رسخ هذا التعصب، حتى يصبح من الصعب أن يستبين التابع خطأ المتبوع.

وقد تعرض لذلك الإمام الماوردي ناقلاً عن الغزالي قوله: «ولقد رأيت رجلاً يناظر في مجلس حفل، وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة، فكان جوابه عنها أن قال: إن هذه دلالة فاسدة، ووجه فسادها أن شيخي لم يذكرها، وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه» [1].

فهذا النوع من التعصب ينشأ – في الغالب – من الغلو في تقديس الأشخاص بما يصل أحياناً إلى اعتقاد العصمة فيهم أو في النهاية إلى عبادتهم، كما وصف القرآن الكريم حال بعض النصارى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ (التوبة: 31).

وكما حدث لبعض المتصوفة من المسلمين حيث أحاطوا بعض الصالحين أو غيرهم بهالات من الكرامات، ثم امتد بهم التقديس إلى أن أصبح كلامهم شرعاً.

وكتب التراجم مليئة بقصص من هذا لا يقبلها شرع ولا يستسيغها عقلٌ.

2– التنقص من المخالف :

مما يسبب في التعصب لطائفة ما أن مخالفيها يتنقصونها ويسخرون منها، فتأتي ردة الفعل شديدة، يكون أهم آثارها التعصب لطائفتهم ومحاولة الانتصار لها بكل الطرق.

3– المناظرات العلنية:

إن حظوظ النفس تظهر في حالة المناظرة العلنية فتفسد نفوس المنصفين، فيصعب عليهم الرجوع عن قول ظهر بطلانه، ويصعب عليهم الرجوع إلى الحق، فيقوى التعصب وتزداد الهوة بين الفريقين. هذا في المناظرات التي يأتيها أصحابها من كلا الفريقين قاصدين الغلبة على خصومهم وإفحامهم منذ البداية.

(1) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص 78؛ وينظر محمد الخزنذر، فقه الائتلاف، ص 76.

4- الترفع والنظر من علو للآخرين:

وهذا يحدث – غالباً – بسبب التزلف من قبل بعض الوصوليين لبعض القادة، فيزينون لهم ما هم فيه من باطل، ويوهمونهم أنهم اختصوا بميزات عن بقية البشر، فينصتون إليهم مع الريبة – في بداية الأمر – ثم يصدقونهم، وقد يقف هذا الأمر عند إقناعهم بهذه الخصوصية، وقد يزداد إلى أن يصل بهؤلاء الممدوحين –من جراء ذلك– إلى الاعتقاد بأنهم ليسوا من جنس البشر، بل يصل في بعض الأحيان إلى ادعاء الألوهية، كما حدث لفرعون: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص:38)، فقد خاطب نبي الله موسى – عليه السلام – بقوله: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (الشعراء:29)، وخاطب قومه بقوله: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ (النازعات:24) .

5- الجهل وضيق الأفق:

الجهل بالشيء وعدم معرفته، وعدم المعرفة بالآخر يسبب انغلاقاً ينتج عنه تعصب لما تعرفه ضد ما لا تعرفه. وسبب ذلك إما عدم توفر فرصة للإطلاع، أو عدم القدرة عليه، أو التوصية من قبل قادة بعض الجماعات أو المسؤولين، أو المنع لأتباعهم بالقوة أو التهديد أو التخويف من الإطلاع على أراء «الغير» ومناقشتها، وهذا يتضح في الدول والجماعات والقيادات الدكتاتورية التعسفية، أو بسبب إخفاء القيادات المعلومات الحقيقية عن أتباعهم ، وهذا يحدث في بعض الطرق الصوفية كثيراً.

ويحضرني في هذا المجال مثالان من حياتنا المعاصرة :

الأول: أن أسرة مسلمة من الشمال الإفريقي كانت تسكن الولايات المتحدة الأمريكية، فأدخلت هذه الأسرة ابنتها المدرسة، ولم تمض أيام حتى جاءت البنت

تحـــكي لأهلها كيف كانت المدرســـة تصـــور الدين الإســـلامي للطلبة بأمور خيالية، لا وجود لها إلا في ذهن هذه المدرسة، فماذا ينتظر – والحالة هذه – من هؤلاء الطلبة الذين كذبت عليهم مدرستهم وأخفت عنهم الحقيقة، إما جهلاً، وإما عمداً وهو الأظهر؟

الثاني: طالب مسلم كان يدرس في كندا تزوج فتاة كندية أسلمت على يديه ومنع الوالدان هذا الزواج، بل ومنعوا إسلام ابنتهم، ولكن الأمر سار على عكس ما يريدون، فقاطعوا صهرهم وابنتهم، ثم انتقل هذا الطالب بعد الانتهاء من دراسته إلى إحدى الدول الأوروبية، وكان يتصل بأصهاره بين الحين والآخر، ولكنهم ماضون في المقاطعة.

وكانت الزوجة في حالة نفسية صعبة من معاملة والديها. وبعد سنوات لانت قلوبهما، أعني والدي البنت، فجاءوا لزيارتها، فرحب بهم صهرهم وبقوا أياماً مع ابنتهم يلاحظون كيف كان زوجها يعاملها بالحسنى، وقد كانوا يتوقعون عكس ذلك لكن الذي لفت انتباههم وجود سيارة فارهة لدى صهرهم، فتعجبوا من ذلك، وبادروا بسؤاله: وهل يسمح دينكم لأتباعه أن يمتلكوا مثل هذه السيارة ؟ فأجاب بقوله: نعم، ويسمح بامتلاك أحسن منها وبأي عدد يقدر عليه المسلم.

أرأيت هؤلاء المساكين كيف كانت معلوماتهم عن الإسلام وأهله، وأغلب الظن أنهم كانوا يعتقدون أن الزوج سيسكنها في كوخ من جريد النخل، وسيركبها حماراً أو بغلاً.

فانظروا كيف يعمل الجهل عمله في التعصب.

وهذه النقطة تجرنا إلى تبيين سبب آخر من الأهمية بمكان في إيجاد التعصب وتخطئة الآخرين ومقاطعتهم وهو:

6- غياب الحرية والأمن :

في وجود الحرية يستطيع كل أحد أن يظهر ما عنده دون خوف أو وجل، وعند توفر الأمن يستطيع كل واحد أن يناقش فكرة الآخر بهدوء ودون تهديد، فتتضح الأفكار لكل ذي عينين، فإذا اتبعت أمراً وأحببته فعن خيار وقناعة، وإذا أبغضت رأياً فعن خيار وقناعة كذلك.

7- البيئة والتنشئة الاجتماعية:

نعم إن التنشئة في بيت يتعصب للون معين أو فكرة معينة أو جماعة أو قبيلة أو جنس، ينتقص الآخرين، سوف لن ينتج إلا أفراداً متعصبين، فإذا كثرت أسر مثل هذه، فإن المجتمع كله أو معظمه سيكون كذلك .

وإذا وجدت في هذه الأسرة من يحاول التنصل من صبغتها هذه فسيخوض صراعاً مريراً مع أسرته، بل مع نفسه كذلك .

ولقد علمت أن فتاة على درجة من الثقافة كانت ممتنعة عن الزواج بسبب ما رأته من نظرة استعلائية في أسرتها ضد الآخرين، وما خرجت من هذه الدوامة إلا بعد لأي، فتخلصت مما تشعر به أسرتها، وما كانت لتبوح بكل هذه التفاصيل لولا ثقتها في بعض من بثتهم أحزانها.

المبحث الثالث

التعصب المذهبي وآثاره وموقف الإسلام منه

المذهب لغة: اسم مكان الذهاب، مشتق من الفعل ذهب.

وفي الاصطلاح: ما ذهب إليه إمام من الأئمة في الأحكام الاجتهادية.

وإذا أردنا أن ندخل المذاهب العقدية هنا لا بد من إضافة: في الفقه والعقائد إلى العبارة السابقة .

ولا شك أن تلك المذاهب لم تتكون بين يوم وليلة، وإنما مرت بمراحل حتى تكونت أصولها، ولذا فإن نسبتها إلى أشخاص فيه نوع من التسامح، وإنما نسبت إلى أشخاص بأعيانهم لأنها نضجت واكتملت عندهم[1].

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن التعصب المذهبي أن نقسم هذا المبحث إلى قسمين:

التعصب في المذاهب العقدية، ونقصد بها الفرق الإسلامية ولا نتعرض – هنا – لغير المسلمين، والتعصب في المذاهب الفقهية.

أولاً: التعصب في المذاهب العقدية وأثره على واقع المسلمين:

ولا نريد هنا أن نتعرض لنشأة المذاهب العقدية، فذلك موضوع طويل يحتاج إلى بحث خاص وقد كتب فيه قديماً وحديثاً [2]. وإنما يعنينا التعصب العقدي وما جره على الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً من فتن كقطع الليل.

(1) عمر الجيدي، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، ص 7.

(2) ينظر أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص 39–64؛ أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص 96 وما بعدها.

ونختار في هذه الورقة تعصب الخوارج وما جره من أثر على المسلمين قديماً وكيف عالجه بعض الصحابة .

لما خرج بعض الناس على علي بن أبي طالب، ﷺ، بعد أن رضي بالتحكيم وكفروه، وزين لهم بعض قادتهم هذا الأمر، وانقسم الناس إلى ثلاث فرق هم:

- فرقة شايعت علياً، وقسم من هؤلاء غلا فيه حتى نسبه إلى الألوهية[1].
- فرقة خرجت عليه وأعلنت الحرب ضده فسموا حينئذ بالخوارج[2].
- فرقة لم تسلك ما سلكه الفريقان.

سبب هذا الانقسام التعصب؛ وكان التعصب - بدوره - سبباً في ضعف الأمة وكثرة الفتن، فبدل أن تتجه الأمة - بجسم صحيح - إلى نشر الدعوة والدفاع عنها، أصبحت تعالج أمراضها، وتضمد جراحها .

ونلاحظ أن الناس في كل من الفرقتين الأولى والثانية كانوا قسمين:

قسم تمكن منه التعصب حتى أعمى قلبه، فلا يفتح أذنيه لخطاب، ولا يفكر بعقله المستقل، فهذا استمر في غلوائه، بل كل يوم يزداد تعصبه، خصوصاً إذا حاول أحد أن يبين له الحق .

وقسم لم يتمكن منه التعصب ذلك التمكن فرجع إلى الحق بعد أن تبين له، وقد نقل لنا الإمام الذهبي في تاريخه مناظرة ابن عباس لهم سنة 38 هـ نذكرها لفائدتها:

«لما اجتمعت الخوارج في دارها، وهم ستة آلاف أو نحوها، قال ابن عباس لعلي: يا أمير المؤمنين أبرد بالصلاة لعلي ألقى هؤلاء. قال: فإني أخاف عليك. قال

(1) ينظر فرق الشيعة، الإمام الرازي في: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص 52–63.
(2) ينظر فرق الخوارج، الإمام الرازي في: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص 46–51.

ابن عباس: كلا.

فلبس ابن عباس حلتين من أحسن الحلل. وكان جهيراً جميلاً .

قال ابن عباس: فأتيت القوم. فلما رأوني قالوا: مرحباً يا ابن عباس. وما هذه الحلة؟ قلت: وما تنكرون من ذلك؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ حلة من أحسن الحلل. قال: ثم تلوت عليهم: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ (الأعراف:32)، قالوا: فما جاء بك؟

قلت: جئتكم من عند أمير المؤمنين، ومن عند أصحاب رسول الله ﷺ ولا أرى فيكم أحداً منهم. ولأبلغنكم ما قالوا، ولأبلغنهم ما تقولون.

فما تنقمون من ابن عم رسول الله ﷺ وصهره ؟

فأقبل بعضهم على بعض، فقالوا: لا تكلموه، فإن الله يقول: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (الزخرف:58)، وقال بعضهم: ما يمنعنا كلامهم، ما يمنعنا من كلامه، ابن عم رسول الله ﷺ ويدعونا إلى كتاب الله.

قال ابن عباس: فقالوا: ننقم عليه ثلاث خلال:

الأولى: حكم الرجال، والحكم لله .

الثانية: قاتل (يوم الجمل) فلم يسب ولم يغنم، فإن كان قد حل قتالهم فقد حل سبيهم، وإلا فلا.

الثالثة: أنه محا نفسه من (أمير المؤمنين) فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير المشركين.

قلت: هل غير هذا؟

قالوا: حسبنا هذا.

قلت: إن خرجت لكم من كتاب الله وسنة رسول الله أراجعون أنتم؟ قالوا: وما يمنعنا.

قلت: أما تحكيم الرجال في أمر الله، فإني سمعت الله يقول في كتابه: ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ (المائدة:95) ، وذلك في ثمن صيد أرنب أو نحوه قيمته ربع درهم، وحكم في الخصام بين المرأة وزوجها فقال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ (النساء:35).

أخرجت من هذه ؟ قالوا: نعم.

وأما الثانية فإن في الذين قاتلهم علي أمكم (عائشة)؛ لأن الله يقول: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ (الأحزاب:6)، فإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم. وإن زعمتم أنها أمكم فلا يحل سباؤها. فأنتم بين ضلالتين.

أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

وأما الثالثة: أما تعلمون أن رسول الله ﷺ يوم الحديبية جرى الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو ؟

فقال الرسول: **يا علي اكتب: هذا ما قاضى عليه مُحَمَّد رسول الله**.. فقالوا. لو علمنا أنك رسول الله ما قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال: **اللهم إنك تعلم أني رسولك**، ثم أخذ الصحيفة فمحاها بيده، ثم قال: يا علي اكتب: **هذا ما صالح عليه مُحَمَّد بن عبد الله**. فوالله ما أخرجه ذلك من النبوة.

أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم . فرجع ثلثهم» [1].

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص 588–590.

أما الذين تمكن منهم التعصب فأعماهم عن الحق، فيكفي أن ننقل ما ذكره شيخ المؤرخين الإمام الطبري مما يدل على انقلاب الحقائق في أدمغتهم.

قال الطبري عن حميد بن هلال: إن الخارجة التي أقبلت من البصرة جاءت حتى دنت من إخوانها بالنهر، فخرجت عصابة منهم، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار، ، فعبروا إليه، فدعوه فتهددوه وأفزعوه، وقالوا له: من أنت؟ قال: أنا عبد الله ابن خباب صاحب رسول الله ﷺ، ثم أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض – وكان سقط عليه لما أفزعوه– فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم، قالوا له: لا روع عليك! فحدثنا بحديث عن أبيك، بحديث سمعه من النبي ﷺ لعل الله ينفعنا به! قال: حدثني أبي، عن رسول الله ﷺ، «أن فتنة تكون، يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يمسي بها مؤمناً ويصبح فيها كافراً، ويصبح فيها كافراً ويمسي فيها مؤمناً، فقالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيراً، قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه محق في أولها وفي آخرها؛ قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده؟ قال: إنه أعلم بالله منكم، وأشد توقياً على دينه، وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنك تتبع الهوى، وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً، فأخذوه فكتفوه ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متم حتى نزلوا تحت نخل مواقر فسقطت منه رطبة، فأخذها أحدهم فقذف بها في فمه، فقال أحدهم: بغير حلها، وبغير ثمن! فلفظها وألقاها من فمه، ثم أخذ سيفه فأخذ بيمينه، فمر به خنزير لأهل الذمة فضربه بسيفه، فقالوا هذا فساد في الأرض، فأتى صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره، فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما عليَّ منكم بأس، إني لمسلم ؛ ما أحدثت في الإسلام حدثاً ولقد

أمنتموني، قلتم: لا روع عليك! فجاءوا به فأضجعوه فذبحوه وسال دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة، فقالت: إنما أنا امرأة، ألا تتقون الله! فبقروا بطنها»[1] .

وأما أثر هذا التعصب على حياة المسلمين اليوم فيجسده ما يقع من حوادث قاتلة فظيعة بين بعض الفرق الإسلامية في أفغانستان وباكستان، وهو في العراق أوضح، حيث يجر التعصب بعضهم إلى التعاون مع جيش الاحتلال الذي جاء ليدمر العباد ويفسد البلاد – ضد إخوانهم المسلمين، وهل هذا إلا تكرار لما فعله الخوارج في الحوادث التي تحدثنا عنها آنفاً، والتي تركنا بعضها خشية الإطالة؟

ويمثله أيضاً ما يلهج به بعض المتعصبين من تجريح لعلماء الأمة لا يستثني منهم إلا قليلاً، وحتى الذين استثناهم لحقهم الذم بطريقة أخرى.

أقول: ابتلي العالم الإسلامي في العقود الأخيرة بشرذمة من المجرحين أو إن شئت قلت علماء الجرح والتجريح، ولا تظنن أني أخطأت فكتبت التجريح بدل التعديل، فهؤلاء لا توجد في معاجمهم كلمة (التعديل)، يخطئون الناس جميعاً، خصوصاً الدعاة منهم، وكأن المسألة مدروسة ومخطط لها. وتبعهم بعض الغوغائيين ممن لا علم عندهم، فأصبحوا يجوبون البلاد يصنفون الناس، يمارسون عليهم أنواعاً من الإرهاب الفكري، يفوق في أغلب الأحيان، الإرهاب السياسي والعسكري. لا يأخذون الفقه إلا من أشخاص معدودين لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة، بل لا يصلونها، وما عداهم فهو مدخول في عقيدته وفي فقهه، لا يسمع إليه، ولا يؤخذ منه. ميزانهم في الرجال ما يخبرهم به هؤلاء عن طريق الهاتف.

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، 3 / 119.

سؤالهم: ما قولكم في فلان؟

الجواب: ساقط.

والباقي معروف. جلبوا على الأمة فتناً مظلمة كقطع الليل، استغلهم بعض الحكام لحاجة، ولأمر ما جذع قصير أنفه.

جهاد المسلمين الأعداء، في نظرتهم، مغلوط، والتصدق على فقراء المسلمين لا يمثل قربة ؛ لأن هؤلاء المسلمين عقيدتهم مدخولة.

أما الظلمة فلا يتعرض لهم، وأما الزائغون فلا يناقش أمرهم.

وبالجملة فإن أمرهم مكشوف للجميع، وتأثيرهم على واقع المسلمين معروف.

ثانياً: التعصب في المذاهب الفقهية وأثره في تفرق المسلمين:

لا أريد أن أتعرض لنشأة المذاهب الفقهية فهذا ليس موضوعنا، ولكن لابد من مقدمة موجزة ندلف منها إلى ما نحن بصدده فنقول:

في حياة الرسول الكريم ﷺ تحدث الحوادث فيستفتى فيها فيجيب معتمداً ﷺ على الوحي بنوعيه، ويجتهد أصحابه، فيصلح خطأهم ويبارك صوابهم.

وبعد وفاته ﷺ كان صحابته يرجعون إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويجتهدون فيما لا يجدونه فيهما اعتماداً على الأشباه والنظائر، وما أوتوا من الفهم.

ولم يكونوا، ﷺ، على مستوى واحد في الفهم والاستنباط، وكانوا يختلفون في بعض الأحيان، فإذا كان هذا الاختلاف مرجعه إلى عدم إطلاع بعضهم على سنة، فإنه بمجرد أن يخبر بما غاب عنه يرجع إليه، وإذا كان مرجع الاختلاف إلى اختلاف الفهوم، فإن كلاً منهم يفتي بما يراه غير عائب غيره .

وكثيراً ما كان ينشب بينهم النقاش الذي يصل إلى الحدة في بعض الأحيان، ولكن سرعان ما ينتهي إما إلى تسليم أحد الفريقين للآخر أو استمرار كل على فهمه

وكأن شيئاً لم يكن.

وهذا الاختلاف في الاجتهاد تعودوه في حياة الرسول الكريم ﷺ فقد دربهم عليه، وخير مثال مسألة النداء إلى غزوة بني قريظة حيث طلب منهم الرسول الكريم أن لا يصلي أحد العصر إلا في بني قريظة، فخرج الصحابة استجابة لهذا الأمر، ولما ضاق الوقت صلى بعضهم العصر في الطريق قبل الوصول فاهماً من أمره ﷺ الإسراع ليس إلاّ، وأخر بعضهم الصلاة حتى غابت الشمس ووصل إلى بني قريظة، ولما أعلم النبي ﷺ بما فعل الفريقان لم يعنف أحداً؛ وذلك دليل الموافقة على الاجتهاد، إذا كان النص يحتمل أكثر من فهم.

وهكذا انتقل علم الصحابة إلى التابعين ثم إلى تابعيهم، وبدأت المذاهب الفقهية تتبلور، وكان العالم يكون اليوم تلميذاً لأحد المجتهدين، وغداً صاحب مذهب وصل إليه بتوفر شروط الاجتهاد فيه، إلى أن بدأ الاجتهاد المطلق يتضعضع، وأصبحت السمة الغالبة التقليد، وانتشرت بعض المذاهب الفقهية وكثر أتباعها، وتقلصت أخرى وانمحت. وعم سبات عميق استمر قروناً، ثم ظهرت بعض الشخصيات الإسلامية الفقهية الإصلاحية التي حاولت أن تنبه المسلمين علماً وعملاً فشايعها أناس وحاربها آخرون.

وخلال فترة الجمود التي تحدثنا عنها بدأ التعصب المذهبي الفقهي يلعب دوراً كبيراً في تفتيت الأمة، والحق أن التعصب موجود منذ بداية وجود المذاهب الفقهية، ولكنه كان يمثل شذوذاً، ولذلك نجد النجباء من الطلبة يتنقلون بين أئمة أصولهم مختلفة، فلا يعد ذلك عيباً، ولا يعامل من فعل ذلك معاملة المارق كما حدث في القرون المتأخرة.

من أسباب التعصب المذهبي:

1- البغي: وهو مجاوزة الحد والإفراط في الأمور، وهذا الإفراط يجر صـــاحبه إلى غـــلو في الحب وغلو في الكره، فإذا أحب لا يرى إلا صـــواباً وإذا كره لا يرى إلا باطلاً ولو كان الحق أبلج، وإذا انتفض عقله من غفلته وتنبه من غفوته - وقليلاً ما يحدث ذلك - سارع إلى التأويل في الحالتين، ولجأ إلى لَيّ أعناق الألفاظ وتحميلها ما لا تحتمل.

والأمثلة كثيرة لا حاجة إلى جلبها هنا، ويكفي أن ننبه إلى أن القرآن الكريم ذكر ذلك في معرض حديثه عن اختلاف الذين أوتوا الكتاب، قال تعالى:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ (البقرة:213).

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ ﴾ (آل عمران:19) .

2- الهوى: وهو كل ما تهواه النفس وتشـــتهيه من مال أو جاه أو منصب أو نســـاء. وهو من أسباب التعصب، فإذا صادف هوى الرجل شيئاً يتحقق به هذا الهوى أيده، ودافع عنه، وكره من يخالفه، فيترك الإنصاف والعدل في أحكامه على كل شيء .

وقد ورد ذم الهوى في الكتاب العزيـز كثيراً، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (ص:26)، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ

هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (القصص:50) .

3- الجهل والقصور العلمي: الجهل هو الاعتقاد الجازم غير المطابق للواقع. والإنسان- في الغالب – يجهل أكثر مما يعلم، وقد ينسى هذه الحقيقة فيظن أن ما علمه هو الصواب، وما علمه غيره هو الباطل، فينكر على المخالف ما يقوله لا لشيء إلا لأنه يجهله، فإذا كان الجهل بسيطاً ارتفع بمجرد سماع الحق، وإذا كان مركباً فلا يغير فيه سماع الحق شيئاً.

وأكثر ما يحدث من تعصب مذهبي يأتي من الجهل والقصور العلمي، خاصة عندما يقوم بعض الناس بأمر بمعروف أو نهي عن منكر – مع هذا القصور – فينقلب – أحياناً – المعروف منكراً لكونهم لم يعرفوه، والمنكر معروفاً لكونهم ظنوه صواباً.

يقول الشيخ مُحَمَّد الغزالي، رحمه الله: حدث لي مرة أن أفتيت بجواز حج المرأة وحدها في الرفقة المأمونة، فإذا طالب مكفوف يمسك بيدي – وهو يرتعش من الغضب – يقول: كيف تفتي بهذا الحكم المخالف للسنة؟

قلت: إنما أنقل مذهبي الشافعي ومالك، رضي الله عنهما.

قال: هما يخالفان السنة.

قلت: هما لا يخالفان السنة .

ثم شرح له ذلك[1].

مظاهر التعصب بصورة عامة والمذهبي على وجه الخصوص:

لما يسود التعصب مجتمعاً ما يظهر ذلك واضحاً في ملامحه، وتبدو آثاره على

(1) محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 89.

تصرفات الناس، عالمهم وجاهلهم، ومن مظاهر هذا التعصب:

1- كتمان الحق ولو كان ظاهراً:

من مظاهر التعصب أن يكتم الحق مهما كان واضحاً، بل ولا يتورع صاحبه عن الكذب لتشويه صورة «الغير».

ولعل النوازل، قديماً وحديثاً، تبين هذا الأمر.

2- التحذير من المنصفين:

قال الشوكاني، رحمه الله: « ومن هذا الجنس الذي يفعله أهل التعصب فرارهم من علماء الإنصاف، وطعنهم على من اتصل بهم، أو أخذ عنهم، وتحذيرهم للعامة وللطلبة عن مجالسة من كان كذلك، وإخبارهم لهم بأن ذلك العالم سيضلهم ويخرجهم مما هم فيه من المذهب الذي هم عليه، ثم يذكرون – عند التحذير والإنذار – مطاعن يطعنون بها على ذلك العالم، لمجرد سماعها يثور غضب كل مسلم، ويلتهب طبع من يسمع ذلك كائناً من كان ...»[1].

3- قلب معاني الألفاظ:

من مظاهر التعصب أن تقلب معاني الألفاظ، فيفرغ اللفظ من معناه، ويعطى معنى جديداً منفراً وبغيضاً، فمن ذلك لفظ الزندقة الذي أصبح يطلق على من هو مستقيم من المسلمين، يحاول تطبيق ما يمكنه من الأحكام الشرعية، حتى ولو على نفسه خاصة أو على أسرته، بعد أن كان هذا اللفظ يحمل معنى من أظهر الإسلام وأبطن الكفر، فأصبح إذا أطلق على شخص هذا اللفظ بمعناه الثاني ينفر الناس منه؛ لأنهم يعرفون معناه الأول، ولا يشرحون لهم السبب الذي لبسوه به في صورته الجديدة.

(1) الشوكاني، أدب الطلب، ص 128.

ومن ذلك لفظ الإرهاب ومشتقاته، أصبح يطلق – حتى في المجتمعات الإسلامية ومن باب أولى المجتمعات غير المسلمة– على كل غيور من المسلمين على دينه.

ومن أمثلة تغيير معاني الألفاظ ما ذكره الشوكاني أيضاً أنه رأى في بلاده كيف تغير مصطلح السنة، فبعد أن كان يفتخر بالانتساب إليه ويتنافس فيه المتنافسون، صار في اصطلاح المتعصبة يطلق على من يعادي علياً ويوالي معاوية افتراء منهم على أهل العلم واجتراء على المسلمين[1].

4- قصر الحق على شخص واحد:

من مظاهر التعصب أن يكون الحق مقصوراً على ما يقوله فلان، وأن الباطل ما يقوله من يخالفه .

وقد أشار عز الدين بن عبد السلام إلى أن بعض المقلدين يتمكن التقليد منه حتى يجعله معتقداً أن الحق منحصر في مذهب إمامه[2].

وقد ذكر خطورة ذلك الإمام سحنون بن سعيد المالكي حيث قال: «أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً، يكون عند الرجل باب واحد من العلم فيظن الحق كله فيه»[3].

وهذا الذي قاله سحنون يظهر واضحاً في زمننا، فكم من (كدت أقول طالب علم فوجدتها لا تصدق عليه) مبتدئ يظن أنه انتهى لا يعرف الفاعل من المفعول، فإذا قدر لك سماعه متحدثاً فيجب أن تتدرب من جديد على صواب النحو والصرف مما حل بك من سماعك نصب المرفوع ورفع المخفوض حتى انقلب علمك وكاد يثبت عندك أخطاؤه من تكرارها.

(1) الشوكاني، أدب الطلب، ص 128.
(2) ابن عبد السلام، قواعد الأحكام، 136/2.
(3) عياض، ترتيب المدراك، 75/4.

قلت: كم من هؤلاء من متصدر لمجالس العلم يرفع صوته بالفتيا متشنجاً قائلاً – عند فرض تواضعه – هذا الصحيح الراجح من الأقوال عند أهل العلم، وعند فرض نسيانه للتواضع لا يذكر أن لقوله مخالفاً أصلاً، وكأنه عد المخالفين لما قاله لا وجود لهم حتى ولو مثلوا الجمهور.

ومن هؤلاء إذا ذكرت له قولاً لمالك في مسألة أرغى وأزبد وقال: من مالك هذا؟ أكان مالك يعرف السنة ويحفظ القرآن ؟ !!!

لكن إن وافق أحد أقوال مالك هواه ارتفع تشنجه وخاطبك: هذا قول مالك، وكفى به حجة.. وينتابك – والحالة هذه – الشك فلا تدري أمالك الأول هو مالك الثاني أم غيره ؟

موقف الإسلام من التعصب المذهبي:

الإسلام يمنع التعصب بجميع أنواعه إلا التعصب للحق عند اتضاحه، ومع ذلك، فإن هذا التعصب للحق لا يسمح بأن يهضم حق المخالف مهما كان .

أما بقية أشكال التعصب للون أو الجنس أو العنصر فقد حاربها الإسلام حرباً لا هوادة فيها، مبيناً أن الإنسان مكرم، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء:70).

وأنه من أصل واحد، ولذلك لا فضل لأحد على آخر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ (الحجرات:13)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النساء:1) وقد سبق أن ذكرنا مرتبة السود من الصحابة في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته.

ومنع الإسلام مناصرة الظلم، وقد كان في الجاهلية شعار «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا..**»، فجاء الإسلام فحافظ على لفظه وعدل مفهومه، فقد قال ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا..** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: **تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ** » [1].

ومنع الإسلام تقديس الأشخاص ليحول بين اتباعه وبين سبب من أقوى أسباب التعصب، وقطعاً لهذه المسألة عمد رسول الله ﷺ وهو أفضل الخلق بلا امتراء، إلى تحذير أمته من المغالاة فيه فيفعلون كما فعل النصارى، فقال ﷺ: «**لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**» [2].

ولذلك خلف ﷺ جيلاً متخرجاً في مدرسة النبوة، لا يقدسون الأشخاص، ولا يتعصبون إلا للحق، ولا يظلمون ولا يرضون بالظلم. وحياة الصحابة مليئة بالأمثلة، جلبها يطيل الحديث، ولكننا نضرب مثلاً واحداً لا يجادل فيه أحد هو أنه لا يفصل بين أي مخلوق على وجه الأرض أن يتساوى مع بقية المسلمين من ساعته إذا دخل الإسلام. أما تسامح الإسلام مع غير أهله ومعاملته إياهم فأمثلته لا تعد ولا تحصى[3].

أما الاختلاف في الرأي ووجهات النظر والأحكام الاستنباطية فهو ضرورة يحتمها اختلاف البشر في مستوى ذكائهم وتفكيرهم وفهمهم. وقد تعرضنا لمثال يدل على أن النبي ﷺ درب صحابته على ذلك في حياته .

ثم استمر ذلك بعد وفاته، وقد مر بنا أنهم يتجادلون ويتناظرون في مسائل كثيرة،

(1) أخرجه البخاري، كتاب المظالم, باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً (فتح الباري 71/5).
(2) أخرجه البخاري (فتح الباري 355/6) كتاب حديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿**واذكر في الكتاب مريم**﴾.
(3) عرضنا منها نماذج في بحث شاركنا به في مؤتمر نظمته جامعة آل البيت بالأردن في العام الماضي؛ وينظر محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام , فقد جمع فيه أمثلة كثيرة.

ولكن ذلك لا يؤثر على علاقاتهم شيئاً، ولا ينقص من محبة بعضهم لبعض ولا من أخوتهم التي قررها القرآن الكريم .

وهذه بعض المسائل التي اختلف كبار الصحابة فيها ولم يؤثر هذا الاختلاف على مسيرة حياتهم:

1- اختلفوا في موته ﷺ وقصة عمر وأبي بكر، رضي الله عنهما، مشهورة.

2- اختلفوا في مكان دفنه ﷺ.

3- اختلفوا في قتال أهل الردة.

4- اختلفوا في توريث الجدة.

5- اختلفوا في مسألة الاستئذان.

وهذه الأمور كلها اتفقوا فيها بعد الخلاف لما نقلت إليهم السنة في ذلك، وقد كانت غابت عن بعضهم .

أما في الفروع الفقهية فقد كان الخلاف بينهم أوسع، وقد استمر أكثره دون اتفاق، ومع ذلك اتسعت صدورهم لهذا الاختلاف، فلم يعب بعضهم على بعض. وهذه نماذج من الخلافات الفرعية:

1- كان عمر، ﷺ، لا يرى التوقيت في المسح على الخفين.

2- الخلاف بين أبي بكر وعمر في ميراث الإخوة مع الجد، فأبو بكر، ﷺ، يرى الجد أباً فيحجب به الإخوة، وعمر، ﷺ، يشركهم معه.

وكتب الفقه المقارن والتفاسير وشروح الحديث مشحونة بمثل هذه المسائل التي اختلف فيها الصحابة، وبقي كل على رأيه لما لم يكن دليل قاطع يرجع إليه الجميع،

وإنما هو الاجتهاد .

والأمر نفسه تكرر بل استمر في عصر التابعين وتابعيهم .

1- فهذا عبد الوارث بن سعيد يسأل ثلاثة من أئمة الفقه فيأتيه الجواب مختلفاً تماماً. فقد سأل أبا حنيفة وابن أبي ليلى وابن شبرمة عن حكم البيع الذي يصاحبه شرط، فكان الجواب من أحدهم أن البيع والشرط باطلان، ومن الآخر أن البيع صحيح والشرط باطل، ومن الثالث أن البيع صحيح والشرط صحيح. ودلل كل منهم على ما ذهب إليه .

2- والخلاف بين مالك والليث معروف مشهور، وكذلك بين الشافعي وشيخه مالك .

لكن هذا الاختلاف الذي ذكرنا أمثلة موجزة منه كان لا أثر له على النفوس وتصرفات أصحابها تجاه من خالفوه؛ لأن خلافهم كان مبنياً على أدب الإسلام في المخالفة في الرأي، وهذه أهم معالم هذا الأدب:

1- يتحاشون الخلاف ما أمكن.

2- المسارعة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

3- كانوا يعتبرون الاستدراكات معونة من بعضهم لبعض .

4- كانوا في اختلافهم لا يخطئون الآخرين ولا يسبونهم، ولا ينسبونهم إلى الجهل أو ما ماثله في العبارات، بل كانت عباراتهم في ترجيح آرائهم متأدبة غاية الأدب، فتجد أحدهم يقول: هذا أحوط أو أحسن، أو أكره ذلك، أو لا يعجبني.

5- التزام التقوى والإخلاص والتجرد عن الهوى وعدم التعصب للأشخاص .

6- كانوا يتأدبون في حضرة مخالفيهم، أحياءً وأمواتاً، فهذا أبو يوسف يصلي خلف الرشيد وقد احتجم، مع أن أبا يوسف يرى أن الصلاة باطلة لانتقاض الطهارة.

وهذا أحمد بن حنبل يجيب من سأله عن الصلاة خلف من لم يتوضأ من الرعاف والحجامة قائلاً: كيف لا أصلي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب ؟

وقد صلى الشافعي بقرب مقبرة أبي حنيفة فلم يقنت.

وهذا مالك لم يرض للخليفة أن يجبر الناس على اتباع موطئه عندما اقترح عليه ذلك.

أما الأدب في التخاطب بالكتابة فيمثله رسالة مالك إلى الليث ورد الليث عليها نوردهما مختصرتين، والذي يهمنا من هاتين الرسالتين – هنا – هو أدب الخطاب مع الاختلاف:

«من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد، عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية، وعافانا وإياك من كل مكروه. اعلم – رحمك الله – أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلهم إليك واعتمادهم على ما جاء منك... فانظر – رحمك الله – فيما كتبت لك فيه لنفسك، واعلم أني أرجوا أن لا يكون دعاني إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله تعالى وحده، والنظر لك، والظن بك، فأنزل كتابي منك منزله، فإنك إن فعلت تعلم أني لم آلك نصحاً .

وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل أمر وعلى كل حال، والسلام عليك

ورحمة الله وبركاته»[1].

ومن جواب الليث: « سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة على إحسانه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك وإقامتك إياها وختمت عليها بخاتمك، أتتنا فجزاك الله عما قدمت منها خيراً، فإنها كتب انتهت إلينا عنك فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندي موضع، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلاً، إلا لأني لم أذاكرك مثل هذا، وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأني يحق علي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيهم به، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وقد أصبت بالذي كتبت من ذلك – إن شاء الله – ووقع مني بالموقع الذي تحب ... وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك، مع استئناسي بمكانك –وإن نأت الدار– فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه، ولا تترك الكتاب إلي بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك، فإني أسر بذلك، كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا وتمام ما أنعم به علينا،

(1) عياض، ترتيب المدارك، 1/41–43؛ الراعي، انتصار الفقير السالك، ص 247–248.

والسلام عليك ورحمة الله » [1].

ونختم هذا المبحث بالكلام عن مسألة اختلف فيها العلماء قديماً وحديثاً، فأما القدماء فقد تلقوا هذا الخلاف بصدر رحب ولم يعنف بعضهم بعضاً؛ وذلك لسعة علمهم واتساع مداركهم، وأما المعاصرون فقد وضعوها فوق مستواها وعنف بعضهم بعضاً بسببها؛ وذلك لقلة العلم وضيق الأفق. هذه المسألة هي رفع الأيدي في الصلاة في غير تكبيرة الإحرام.

قال ابن عبد البر: «وقد أكثر أهل العلم بالكلام في هذا الباب، وأفرط بعضهم في عيب من لم يرفع، ولا وجه للإكثار فيه».

وروي عن ابن المبارك أنه قال: صليت إلى جنب أبي حنيفة فرفعت يدي عند الركوع وعند الرفع منه. فلما انقضت صلاتي قال لي: أردت أن تطير؟

فقلت له: وهل من رفع يديه في الأولى (يعني عند تكبيرة الإحرام) يريد أن يطير؟ فسكت[2].

ونقل ابن عبد البر أيضاً عن أحمد بن خالد قوله: كان عندنا جماعة من علمائنا يـرفعون أيديهم في الصـلاة على حـديث ابن عمر وروايـته عن مالك، وجمـاعة لا يـرفعـون إلا في الإحرام على رواية ابن القاسـم، فما عاب هؤلاء على هؤلاء، ولا هؤلاء على هؤلاء . [3]

وفي عصرنا هذا يتكلم بعض من له نصيب من العلم – بمناسبة افتتاح مسجد –

(1) ابن القيم، إعلام الموقعين، 3 / 93 – 100.

(2) ابن عبد البر، التمهيد، 9/228–229.

(3) ابن عبد البر، الاستذكار، 124/2.

فينفي نفياً قاطعاً وجود أحد يقول بوضع اليمنى على اليسرى في الصلاة، ولا رفع الأيدي في غير تكبيرة الإحرام، ولا رواية صحيحة بذلك عن رسول الله ﷺ ولا الصحابة ولا التابعين ولا الأئمة المتبوعين، قال ذلك وهو يعلم – يقيناً – أن الذي قاله ليس صحيحاً، ولكنه التعصب المقيت الذي يجر صاحبه إلى الكذب الصراح، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

أما صب اللعنات والسب بسبب التعصب وكراهة المخالف فالساحة الإسلامية مليئة به في عصرنا هذا ونكتفي بما أوردناه [1].

وأما التعصب الذي يؤدي إلى تغيير العبارات في الكتب بما يوافق هواه أو هوى غيره فمن أفظع أنواع التعصب، وهو يزيد على التعصب العادي بأنه خيانة لا أمانة[2].

فالمتعصب غير الخائن يكفيه أن يرد على كلام العلماء الذي لا يعجبه إما بالتعليق على كلامهم بعد إثباته، أو بتأليف مستقل، أما أن يغيره فهذا ما لا يفعله عالم يحترم نفسه.

(1) نحيل إلى كتاب الشيخ محمد عوامة في أدب الرأي.
(2) المرجع السباق، ص 77 – 78.

المبحث الرابع
علاج التعصب عموماً والمذهبي على الخصوص

إن الخـروج مـن مـأزق التعصـب والقضـاء علـى آثاره يتـأتى بدراسـة أسـبابه وتشخيصها، فالتشخيص مرتبة قبل إعطاء الدواء .

وبعد أن درسنا هذه الأسباب، وعرفنا كثيراً من الاختلافات التي وقعت بين علماء الأمة دون أن تجر إلى التعصب المقيت، الذي يؤدي أحياناً إلى إزهاق الأرواح، وأن التعصب في الأمة كان شذوذاً، والشاذ لا حكم له، بعد كل هذا أرى أن المسألة تعالج بالأمور الآتية مجتمعة غير منفردة، ولا نطلب تطبيقها فجأة أو بين يوم ليلة، ولكن لابد من التدرج .

وقبل أن أذكر هذه النقاط أقول: إن تعصب الأعداء علينا وعلى ديننا سببه من عند أنفسنا، فنحن مقصرون في الدعوة إلى الإسلام وتوضيح معالمه لمن يجهله، ولا أقول إن الدعوة الآن مختفية، ولكن أقول إنها دون الأمل المنشود ؛ وذلك لأسباب متعددة، فعندما تظهر صورة الإسلام الحقيقية يعرف الخصوم أن الإسلام لا ينظر إلى الصور ولا إلى الألوان، وإنما النظر إلى التقوى والخوف من الله والعدل بين الناس.

لا يقال إن ذلك ضرب من الخيال الذي لا وجود له في الواقع ؛ لأنا نقول قد وجد في الواقع ردحاً من الزمن حكم الإسلام، فعاش في كنفه المسلم وغير المسلم حياة آمنة مطمئنة، وما وجد فهو قابل أن يوجد مرة أخرى إذا توفرت ظروفه .

نرجع إلى الحديث عن الأمور التي إذا توفرت غاب التعصب أو على الأقل أصبح يمثل شذوذاً، وهذه أهمها:

1- الحرية الكاملة بمعناها الإسلامي: قلت بمعناها الإسلامي حتى لا يفهم من كلامي أني أنادي بالحرية الإباحية الغربية، أو بالحرية على شعار الغرب، التي فضحت دولياً؛ لأنها كيل بمكيالين وبيع وشراء بعملتين. الحرية التي ننادي بها هي تلك التي تضمن للناس حرية العبادة والتفكير وإبداء الرأي والدعوة إليه بالطرق السلمية وحرية التعليم .

تحت هذه الحرية حصلت هذه المناظرة التي ذكرها عياض في مداركه حيث قال: «وذكر أن رجلاً من أصحاب مُحَمَّد بن سحنون دخل بمصر حماماً، عليه رجل يهودي، فتناظر معه الرجل فغلبه اليهودي، لقلة معرفة الرجل: فلما حج مُحَمَّد بن سحنون صحبه الرجل، فلما دخل مصر قال ابن سحنون لتلميذه: - امض بنا - أصلحك الله إلى الحمام الذي عليه اليهودي.

فلما دنا خروج مُحَمَّد سبقه الرجل، وأنشب (أي بدأ) المناظرة مع اليهودي ثم جاء مُحَمَّد فأخذ في مناظرته حتى حانت صلاة الظهر، فصلاها مُحَمَّد، ثم رجع معه إلى المناظرة حتى كانت العصر فصلاها، ثم المغرب، ثم العشاء الآخرة، وقد اجتمع الناس وشاع الخبر بمصر: الفقيه المغربي يناظر اليهودي، فلما كانت صلاة الفجر انقطع اليهودي وتبين له الحق فأسلم، فكبر الناس وعلت أصواتهم. فخرج مُحَمَّد، وهو يمسح العرق عن وجهه، وقال لصاحبه: لا جزاك الله خيراً. كاد أن يجري على يديك فتنة عظيمة، تناظر يهودياً وأنت بضعف، فإن ظهر عليك اليهودي - لضعفك - افتتن من قدر الله فتنته»[1].

فانظروا كيف تحدث هذا اليهودي بحرية مطلقة دون أن يتلقى أدنى تهديد، فلما اقتنع أسلم، ومصداق ذلك في القرآن الكريم: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (البقرة:256).

(1) عياض، ترتيب المدارك، 215/4.

هذه الحرية التي سمحت لمختلف الفرق بل ولمختلف الديانات أن تعقد المناظرات المفتوحة في بيت المقدس وغيره كما يخبر بها القاضي أبوبكر بن العربي في رحلته.

هذه الحرية التي لا يمكن أن تكون إلا تحت سلطان عادل لا تخشى الرعية منه حيفاً ولا ظلماً.

فإن الظلم والحيف والميلان إلى جانب على حساب آخر، يولد التعصب، فيصل أذاه إلى الظالم نفسه، ولو كان بعيداً عن مكان الظلم .

2- رفع الإرهاب الفكري بجميع أنواعه: وهذا داخل في النقطة السابقة، فإن ممارسة الإرهاب الفكري تنتج التعصب وتقويه في الجهتين المتقابلتين .

وقد عاش بعض العلماء الأفذاذ في العالم الإسلامي هذا الإرهاب الذي كان يمارس عليهم من قبل بعض الفئات لمصالح مختلفة، وعندنا أمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي، من ذلك ما حدث للإمام مالك، حيث منع من الافتاء في بعض مسائل الطلاق[1]، والإمام أحمد في مسألة خلق القرآن[2]، وأبي إسحاق التونسي[3]، والباجي[4]، وعز الدين بن عبد السلام[5]، وابن تيمية[6]، والشاطبي[7] وهلم جرا إلى يومنا هذا. بل في يومنا هذا المحنة أعظم والابتلاء أكبر[8].

(1) عياض، ترتيب المدارك.
(2) والمحنة مشهورة ذكرها كل من ترجم له.
(3) عياض، ترتيب المدارك، 59/8 – 62.
(4) حدث له ذلك أثناء تدريسه للبخاري، ينظر تحقيق المذهب للباجي، ص 115–157.
(5) ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 210/8.
(6) ينظر مواضع كثيرة من البداية والنهاية لابن كثير خصوصاً، 60/14 , 156–160.
(7) ينظر: حمزة أبوفارس، البدع وموقف الإمام الشاطبي منها، مجلة الموافقات، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، العدد الأول، 1992م، ص 319 – 363.
(8) يمنعنا من التصريح والتوضيح نفس المشكلة التي نتحدث عنها في هذه الفقرة.

3- تدريس المذاهب الإسلامية المختلفة، عقدية وفقهية: إن تدريس الطلبة المذاهب المختلفة، خصوصاً في المراحل المتقدمة، يذهب التعصب، شريطة أن يعتمد في إعطاء المعلومة المصادر الأصلية، التي كتبت بأقلام أتباعها، لا بأقلام خصومها.

وقد يقال: إنك إن عممت هذا الأمر على كافة التخصصات، حولتهم إلى متخصصين في هذا المجال، مع أن تخصصهم بعيد من ذلك .

أقول: لا أقصد التوسع في هذه الدراسة لغير المتخصصين، وإنما يعطون نبذة موجزة عن الفرق العقدية .

وأما تدريس المذاهب الفقهية المختلفة فهو مهم جداً، فلا بأس أن يبدأ مع الطالب بالمذهب الفقهي السائد في بلده، وكلما تقدم به العمر علمناه فقه المدارس الأخرى بأدلتها دون تعصب .

فمادة الفقه المقارن ومادة أسباب اختلاف الفقهاء توسعان مدارك الطالب وتبعدان عنه التعصب .

وقد لوحظ عن بعض العلماء المنغلقين، الذين -كما قال سحنون - لا يعرفون من الحق إلا وجهاً واحداً يظنون كل الحق فيه، لوحظ تراجعهم في عباراتهم، تمكنهم من المذاهب الفقهية الأخرى، غير مذهبهم السائد، فبعد أن كان جوابهم للسائل: هذا هو الحق، وهذا هو الصحيح، وما سواه باطل ... بدأت العبارات تأخذ مجرى آخر، إذ أصبح يقول: في المسألة خلاف للعلماء، وفي المسألة أقوال.

ولذلك كان الشاطبي، رحمه الله، يرى أن اعتياد الاستدلال لمذهب واحد ربما يكسبه نفوراً أو إنكاراً لمذهب غير مذهبه من غير إطلاع على مأخذه، فيورث ذلك

حزازة في الاعتقاد في فضل الأئمة الذين أجمع الناس على فضلهم وتقدمهم في الدين، واضطلاعهم بمقاصد الشارع وفهم أغراضه[1].

4- الاعتناء بأدب الخلاف: لا بد لاجتثات التعصب المذهبي من الاعتناء بأدب الخلاف، فيجب أن يأخذ حيزاً من مناهجنا الدراسية وبرامجنا الإذاعية، ونختار له العبارات المؤثرة، والأمثلة الحقيقية من الكتب المعتمدة، ولا مانع من إعادة صياغتها إذا كانت الألفاظ فيها صعوبة على فهم الناشئة .

ولا بد من تدريس نماذج من سير علمائنا من مختلف المذاهب الفقهية، والتعريف بمبلغهم من العلم، حتى يعرف من ينقصهم قدره فيقف عنده، والتركيز على كيفية احترام علماء الأمة بعضهم لبعض، والبعد عن بعض الأخبار المدسوسة التي أودعها بعض المغرضين أو الغافلين مما يوحي بنقص العلماء والعيب فيهم ؛ ولذلك لابد من إعداد هذا المنهج بإتقان من قبل أناس متخصصين يتصفون بالوسطية والاعتدال لا يهمهم إلا إنقاذ الأمة.

5- النصح بالأخذ عن الشيوخ، وعدم الاعتماد – خاصة في ابتداء التعلم – على الكتب وما شابهها في فهم الفقه، فإن ذلك يدخل كثيراً من العلم مغلوطاً، وبمرور الزمن يستقر هذا الأمر في فهم الطالب فيحسبه علماً يقينياً، فيدافع عنه، وما هو إلا حاصل فهمه السقيم .

ولقد جاءني منذ مدة قريبة طالبة تعمل بحثاً فقهياً لدرجة علمية، جاءتني متحيرة من عبارة لأحد الفقهاء الشافعية فهمتها فهماً خاطئاً، ولما أرادت إثباتها في بحثها أحست أن هناك تناقضاً بين كلام المؤلف هذا، وبين كلام مؤلف آخر في نفس

(1) الشاطبي، الموافقات، 3/131-132.

المذهب، ولما شرحت لها عبارة الفقيه انحل اللغز لديها، وذهب التناقض الذي فهمته في بداية الأمر.

لكن هنا يجب أن ننبه إلى أمر آخر، وهو اختيار الأساتذة الأكفاء؛ لأن الأستاذ إن كان نفسه قاصراً عن شرح المسائل الفقهية فماذا سيكون مصير الطالب، وإننا لنعرف أساتذة يشرفون ويناقشون أبحاثاً فقهية على مستوى الماجستير والدكتوراه لم يشموا للفقه رائحة، وإنما غرهم ما يحملون من شهادة ومؤهل، فظنوا أن المؤهل لا بد أن يكون صاحبه عالماً، ولا علاقة للأمرين ببعضهما في واقعنا المعاصر.

فإذا أردنا أن نرجع الأمر إلى نصابه فيجب غربلة تلك الأعداد الهائلة التي تدرس في جامعاتنا، ولا أخفي أن الأمر نسبي في البلاد الإسلامية، ولكن البلية كادت تعم.

6- لا بد أن نغرس في شباب الأمة أن الخير في الائتلاف والشر في الاختلاف، وأن الإسلام يدعو إلى الوحدة، ويحذر من التشرذم. وهذا ما يجب أن تتجه إلى الدعوة إليه جهود علماء الأمة وخصوصاً قادة الدعوة.

كما يجب أن نبين أن الاختلاف في الفروع المستنبطة اجتهاداً ضرورة لا بد منها، ولا يؤثر هذا الاختلاف شيئاً على المحبة والانتماء والنصرة .

7- ترسيخ فكرة أن الفتوى لا يعالجها إلا أهلها، وذلك بعد النضج الطبيعي، وقلت الطبيعي؛ لأن العلم كالفاكهة، فإذا حصدت قبل وقتها فإنه لا طعم لها .

وهذا النضج لا يأتي إلا بعد المرور بمراحل، فإن من طوى دراسته طياً أو قطعها قبل إبانها يصدق عليه قول أبي حنيفة لتلميذه أبي يوسف عندما جلس للتدريس دون استئذان، فأرسل إليه أبو حنيفة رجلاً سأله خمسة أسئلة وعلمه الجواب، فذهب الرجل إلى أبي يوسف فسأله هذه الأسئلة فلم يعرف جوابها، فأجابه الرجل، فعلم

أبـو يوسـف أن أبا حنيـفـة بعثـه، وأنـه تعجـــل الأمر قبل أوانه، فرجـع إلى درس أبي حنيفة، فقال له قولته المشهورة: تزببت قبل أن تتحصرم[1].

معناه أن العنب لا يصل إلى مرحلة الزبيب إلا بعد مروره بمرحلة الحصرم، ويستحيل أن يتعداها، وهذا حال المستعجلين[2].

وفي الموطأ، عَنْ مَالِك، عَنْ أَبِي النَّضْرِ، مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ: مَا يُوجِبُ الْغُسْلَ؟ فَقَالَتْ: هَلْ تَدْرِي مَا مَثَلُكَ يَا أَبَا سَلَمَةَ؟ مَثَلُ الْفَرُّوجِ، يَسْمَعُ الدِّيَكَةَ تَصْرُخُ فَيَصْرُخُ مَعَهَا.. إِذَا جَاوَزَ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ[3].

قال الباجي في شرحه: وقولها: هل تدري ... يحتمل معنيين: أحدهما أن أبا سلمة كان في زمان الصبا، وقبل أن يبلغ حد الجماع يسأل عن مسائل الجماع ويتكلم فها، وهو لا يعرفها إلا بالسماع من غيره، كالفروج الذي يسمع الديكة التي بلغت حد الصراخ فيصرخ معها، وإن لم يبلغ ذلك الحد.

والثاني أن أبا سلمة كان صبياً لم يبلغ مبلغ الكلام في العلم إلا أنه كان يسمع الرجال والكهول يتكلمون في العلم فيتكلم معهم[4].

8- لابد من تدريب الناس، عالمهم وجاهلهم، على فقه الأولويات: العلم مراتب ودرجات، وأهميته تختلف باختلاف هذه المراتب، ورحم الله الشيخ علي الطنطاوي الذي كان يشرح دائماً هذه المسألة، ويشدد على أهميتها. وقد ظهر لي

(1) ابن نجيم، الأشباه والنظائر، ص 424 – 425.
(2) محمد عوامة, صفحات في أدب الرأي، ص 49.
(3) مالك، الموطأ،46/1 ، كتاب الطهارة، باب واجب الغسل إذا التقى الختان.
(4) الباجي، المنتقى، 1 /96.

أهمية ما كان يقوله بعد فترة من سماعه، فقد كان، رحمه الله، فطناً عالماً بمواطن الداء في واقع المسلمين.

ولا أستطيع هنا أن ارتب هذه الأولويات؛ لأن هذه الورقة لم تعد لذلك، ثم إن هذه المراتب تختلف من زمن إلى آخر ومن مكان إلى آخر، باستثناء شيء له المرتبة الأولى مطلقاً وهو العقيدة.

وأحسب، والله أعلم، أنه لهذا السبب كان جواب النبي ﷺ لصحابته عن سؤال واحد – وهو: أي الأعمال أفضل؟ – مختلفاً من صحابي لآخر؛ إذ قد وضح له ﷺ وجه القصور عند كل منهم فقدمه في المرتبة الأولى؛ لعلمه باستقامة الجوانب الأخرى عند السائل.

وقلت في مبدأ الفقرة: عالمهم وجاهلهم؛ لأن الجاهل يجب أن يعلم وجوب السؤال عن الأهم من أمور دينه، ولأن العالم يجب أن يخبر من لا علم عنه عن الأهم قبل المهم، ولذلك قال العلماء: لا يجب تعلم أحكام الزكاة على من لا تجب عليه، ولا الصيام قبل وصول وقته، ولا الحج على غير المستطيع وهكذا .

9- إشغال الشباب بهموم الأمة حتى يجعلوها رأس مالهم: وهو تابع لمسألة فقه الأولويات، فإن العاقل إذا وجد مسلماً يهم كافر بذبحه يجب أن ينقذه فوراً من هذا القتل – إن كان قادراً على ذلك – لا أن يقول انتظر أعلمك كيف تجلس الجلسة الصحيحة في التشهد مثلاً.

وشبيه بهذا ما تراه اليوم – وقد حدث مثله من قبل – من المعارك الدائرة بين بعض العلماء، أو قل المتعلمين في مسائل اجتهادية اختلفت فيها الفهوم، وفي الوقت نفسه لا ينطقون ببنت شفة ضد الظلم الذي يحل بالمسلمين من بني جنسهم تارة، ومن أعدائهم تارة أخرى.

أو يضيع الرجل وقتاً طويلاً في مناقشة مستحب ويجهد نفسه لمعرفة راجحه من مرجوحه، ويترك بذل الجهد فيما هو متخصص فيه مما ينفع المسلمين أو ينقذهم من كارثة.

ذكر الشيخ مُحَمَّد الغزالي، رحمه الله، في حديث له بالإذاعة، أنه مر بصيدلي مسلم، له حرقة على دينه، يناقش آخر بتشنج في مسألة أحد مندوبات الصلاة، ولما رأى الصيدلي الشيخ فرح وطلب منه أن يعطي رأيه في المسألة، متمنياً ولا شك أن يكون الرأي لصالحه، فبادر الشيخ بسؤاله: أنت مسلم تحب الخير للمسلمين؟ قال: نعم. قال الشيخ: إذاً اترك هذا وانتبه لتخصصك وراقب الأدوية التي تأتينا من كل مكان هل هي فعالة أو لا ؟ هل ما زال تاريخ صلاحيتها لم ينته بعد ؟ فإنك إن فعلت هذا خدمت المسلمين خدمة جليلة، أما المسألة التي تناقشها فاتركها لأهل التخصص.

وانظر كيف يرسل علماء الأندلس رجلاً ليسأل ابن عرفة الورغمي في تونس عن مسألة دعاء الإمام بعد الصلاة، وكذلك يفعل أهل سلا في المغرب، بعد عشر سنوات من مسألة الأندلس. أقول: انظروا كيف يفعلون ذلك والعدو حولهم يتربص بهم، وقد أخذ بعض البلاد الإسلامية، فأين هذا من ذاك؟

10- دعوة الناس عن طريق جميع الوسائل المتاحة إلى التوسط والاعتدال، فإن ذلك يذهب التعصب بجميع أنواعه، وتكون هذه الدعوة بتطبيق الأمور التي سبق ذكرها.

ولا نعني – هنا – بالاعتدال والتوسط أن نتبع الأقوال الشاذة، التي هي انسلاخ من الدين، ولكننا نعني بها اتباع القرآن والسنة كما فهمها جمهور علماء الأمة.

وهذا موضوع طويل يحتاج إلى محور خاص، وقد كتبت فيه الكتب، وإنما تكفينا هنا الإشارة إلى أهميته.

11- تربية المسلم على اتباع الحق، أين وجده: سبق أن ذكرنا أن من أسباب

التعصب أن يعتقد المسلم أن الصواب دائماً مع العالم الفلاني ؛ ولذا فإن جميع ما يقوله حق، وما يقوله غيره باطل، فوجب أن لا تؤخذ الأحكام إلا منه.

وبناء على ذلك فإن من الطرق التي يقضى بها على التعصب الفقهي، أن نجعل مناهجنا وأحاديثنا في الإذاعات، المسموعة والمرئية، والمجلات المتخصصة في علوم الشريعة، والكتب التي تصدرها المؤسسات المتخصصة أعني إدارات الأوقاف والجامعات الإسلامية، وما في حكمها، نجعلها تربي المسلم على اتباع الحق أين وجده، وتحرره من التقليد الأعمى، وهذا يستدعي تضافر الجهود من المخلصين للشريعة الإسلامية، ولكن ذلك يحتاج إلى أموال فيرجع بنا الحديث إلى من بيدهم أمور المسلمين.

12- إتاحة الفرصة لعلماء الأمة – غير علماء السلاطين الذين مل الناس سماعهم ونفروا من كلامهم – **حتى يوجهوا الشباب إلى خير ما فيه الأمة**، من غير توجيه ولا ضغط من الحكام، فإن الشباب أصبحوا لا يثقون بالعلماء (الرسميين)؛ لأنهم يعرفون سلفاً من يقودهم ويوجههم، وإذا انعدمت الثقة فإن الكلام يدخل من أذن ويخرج من أخرى دون أن يعرج على القلب.

وفي الختام أقول: الكلام في هذا الموضوع بحر لا ساحل له ؛ لأنه يمثل هماً واقعاً، فلنكف القلم عن الكتابة، عسى أن تتاح فرصة أخرى لاستكمال الحديث.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه.